الطبيعة وانعكاساتها على تجربة الشاعر ابن الأبَّار القضاعي البلنسي

م.م. محمد كاظم عجيل
المديرية العامة للتربية في محافظة ذي قار

الملخص :

يتناول هذا البحث علاقة الشاعر ابن الأبَّار بالطبيعة بضربيها (الحية والصامتة) ، وأثرها في تجربته الشعرية ، إذ وجد في فضائها الواسع متسعاً للبوح بمشاعره وأحاسيسه ، بهدف التخفيف من حدة التوتر النفسي في ظل الأزمات وحالات الضعف والانكسار التي تعرض لها في حياته . وقد عالجت هذه الدراسة ذلك عبر التمهيد الذي تضمن ترجمة عن حياة الشاعر ، ثم الوقوف على توظيف الشعراء الأندلسيين لمظاهر الطبيعة . فيما جاء الجانب التطبيقي لهذه الدراسة في مبحثين هما : (مظاهر الطبيعة الحية) ، و(مظاهر الطبيعة الصامتة) ، إذ وقف البحث عند أبرز مظاهر الطبيعة ورموزها التي وظفها الشاعر للتعبير عن حالته الشعورية ، ثم جاءت الخاتمة لتبيِّن أبرز النتائج التي توصل إليها البحث .

المقدمة :

الطبيعة ذلك السر العجيب بسحرها وجمالها وغموضها كانت ومازالت محط أنظار الشعراء ، لا سيما الشعراء العرب ، إذ تربطهم بالطبيعة روابط شعورية ونفسية ووجودية أساسها الحس والانفعال . وقديماً كان الشاعر العربي ينظر إلى الطبيعة نظرة المستجيب لسحرها المتأمل لحضورها ، الذي يستحوذ على مشاعره ؛ لأنَّها في نظره لم تكن شيئاً ساكناً ، وإنما بدت له مفعمة بالحياة مما جعله ينبهر بها وينفعل بمظاهرها ، فيناجيها ويشكو لها همومه وآلامه[1]. فكانت مصدر فرحه وحزنه ، ومبعث تأملاته وتفكيره ، فهي من جانب تجلب له الاطمئنان والسرور، ومن جانب آخر تمثل موضعاً للخوف والرهبة لما تحويه من مخاطر يجهلها . وهذا ما جعله ((يبتهج بما توحي به هذه المظاهر من بهجة ، ويكتئب لما توحي به من كآبة وحزن ، وكأن ما ينبجس من الطبيعة يتداخل مع ما ينبجس من روح الشاعر نفسياً وانفعالياً ، فالاثنان يتصلان بعلاقة انفعالية واضحة))[2]. لذلك يعد الشاعر من أكثر طبقات المجتمع إحساساً ورهافة في

استقبال مظاهر الطبيعة والتفاعل معها . ثم وبعد ذلك تتم عملية الإبداع ، إذ يضفي الشاعر على هذا المظهر أو ذاك من مظاهر الطبيعة انطباعاته الخاصة التي تسم فنه وتميزه من غيره[3]. فيضطر في بعض الحالات وتحت وطأة بعض الظروف إلى التوجه نحو الطبيعة للتعبير عن حالته النفسية ، وتجسيد مواقفه الشعورية فيختار ما يناسبها ويتجاوب معها من جوانب الطبيعة ، وفي بعض الأحايين لا ينتقي الشاعر من الطبيعة ما يناسب حالته النفسية ، بل يفرض عليها فرضاً ما يستجلي همومه وأحزانه ، فيجد فيها متنفساً ووسيلة قادرة على تحقيق الاستقرار النفسي[4].

وبعد الاطلاع على ديوان الشاعر ابن الأبَّار وجدنا أثراً بارزاً للطبيعة في تجربته الشعرية ، لذلك جاءت الدراسة تحت عنوان (الطبيعة وانعكاساتها على تجربة الشاعر ابن الأبَّار القضاعي البلنسي) . وقد حاولنا قدر الإمكان الابتعاد عن الدراسات التقليدية في وصف مظاهر الطبيعة ، والاقتصار على بيان علاقة الشاعر بالطبيعة لاسيما في لحظات الحزن والضيق والتأزم النفسي ، ومحاولته إسقاط ما بداخله من آلام وهموم على الطبيعة، لتكون الوعاء الذي يُفرغ في الشاعر ما يختلج بداخله من انفعالات ومشاعر وأحاسيس ، وما يعترضه من مصاعب وتحديات .

التمهيد :

أولاً : نبذة عن حياة الشاعر ابن الأبَّار

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبي بكر القضاعي ، الشهير بابن الأبَّار[5]. وهذا نسبه كما ذكره حين ترجم لأبيه عبد الله في كتابه التكملة[6]. وهو من أهل بلنسية وأصله من (أجردة) وفي بعض المصادر اسمها (أندة) ، وهي وما ولاها دار القضاعيين بالأندلس[7]. كان مولده في مدينة بلنسية سنة خمس وتسعين وخمسمائة للهجرة (1199م) يوم الجمعة في أحد شهري ربيع[8]. وقد نشأ ابن الأبَّار في كنف والده ، فتتلمذ على يديه منذ طفولته . وكان لذلك الأثر الكبير في حياته ، فنشأ في بيت علم ودين وعفاف ، إذ كان أبوه من أهل العلم والدين[9]. وقد ظهرت علامات تميّز الشاعر وبراعته ونبوغه وشغفه الشديد بالعلم منذ طفولته ، إذ ((لم يبلغ ابن الأبَّار مبلغ التلقي ، وهو لمثله مبكر ، حتى جلس إلى أبيه يتلو عليه القرآن بقراءة نافع مراراً ، ويسمع منه الأخبار والأشعار . وما أن أيفع حتى شارك أباه في أكثر من روى عنهم))[10]. وهذا يعني أنَّ والده كان استاذه الأول الذي نهل منه العلم والمعرفة ، فضلاً عن ذلك فقد درس على أجلاء أهل العلم في عصره ، فأخذ القراءات

عن أبي عبد الله بن نوح ، وأبي جعفر الحصار ، وسمع منهما ، وأبي الخطاب بن واجب ، وأبي الحسن بن خيرة وأبي سليمان بن حوط الله ، وأبي عبد الله محمد بن عبد العزيز بن سعادة ، وقد صحب أبا الربيع بن سالم بضعاً وعشرين سنة ، وهو من ندبه إلى وضع كتاب التكملة[11]. وأجاز له الكثيرون منهم رواية كتبهم ورواياتهم[12]. حتى أصبح فقيهاً ، وراوية محدثاً ، وكاتباً وأديباً بارعاً ، ونحوياً ولغوياً بارزاً ، وشاعراً مجيداً تصرف بفنون القول وأبدع فيها ، وطرق شتى الأغراض الشعرية [13].

وكان ابن الأبَّار كثير الترحال والسفر طلباً للعلم والجاه ، فقد ((رحل إلى العدوة واستوطن بجاية ، ودرس بها وأقرأ وروى وأسمع وصنَّف وألَّف ، وهو ممَّن لا ينكر فضله ، ولا يجهل نبله ، له تآليف حسنة ، ونزعات في علم الأدب بارعة مستحسنة . وكان أول وصوله من الأندلس إلى العدوة رسولاً عن والي بلنسية ، وقضى رسالته عند ملك أفريقية في حديث طويل ، ورجع إلى الأندلس ثم رجع إلى العدوة قاصداً استيطانها، فتخيَّر سكنه ببجاية ، ثم دعاه أمير المؤمنين المستنصر إلى حضرته فدخل عليه فأعجبه منطقه ورواه ، ورأى من نبله وفضله أضعاف ما قدر أن يراه))[14]. إلى أن توفي بتونس مقتولاً يوم الثلاثاء العشرين من محرم عام ثمانية وخمسين وستمائة للهجرة[15].

وممَّا تجدر الإشارة إليه هو أنَّ ابن الأبَّار لم يسلك طريق أبيه في الانصراف إلى العلم والانقطاع له ، إذ انصرف وهو في مطلع شبابه إلى السياسة وطلب الوظائف والجاه في ظروف ضيقة عسيرة على الحاكمين والمحكومين على حد سواء ، فأصابه من ذلك بلاء شديد ، وخلق له أعداءً وحساداً كانوا سبباً في معاناته ومقتله[16]. وبذلك فإنَّ الشاعر عاش حياة مليئة بالمصاعب والمتغيرات تخللها الحزن والقلق ، فهو قد عاش ثلاثاً وستين سنة اثنتان وأربعون منها في الأندلس ، والباقي في المغرب ، ولم يسعد في هذا ولا ذلك ، ولم يقر له حال منذ أيفع إلى أن مات ، فأما في الأندلس فقد عاش مروع السرب يحوم فوقه شبح الموت في كل حين ، وكتب لرجال لولا سوء الزمان لما كان لهم إلى الإمارة سبيل ، ومدح غيرهم ممَّن لا يستحقون مجرد الذكر ، فضلاً عن المديح ، كما أنَّه عاش في ظل صراعات داخلية تمثَّلت في التنافس العربي للسيطرة على الأندلس ، وصراعات خارجية تجلت في خطر النصارى الذي كان يهدد الوجود العربي والإسلامي في تلك الجزيرة . ثم بعد ذلك فقد وطنه وخرج بما حملت يداه إلى المغرب حيث تلقفه الأعداء وأعانهم على نفسه بسوء خلقه وتطلعه إلى الوظائف والجاه ، ولم يسعد في وطنه الجديد ولا هدأ باله ، وانتهى أمره إلى هذه النهاية الفاجعة على يد من خدمه وملأ

الصفحات في مديحه[17]. وقد ألقت تلك الظروف المؤلمة بظلالها على تجربة الشاعر ، وبدا أثرها واضحاً في شعره .

ثانياً : الطبيعة في الشعر الأندلسي

لقد استحوذ جمال الطبيعة في الأندلس على حواس الشعراء وجوارحهم ، وأصبحت الطبيعة الملهم الأول لهم ، ومن أهم بواعث الإبداع ، فجمالها ومفاتنها أجبر الشاعر الأندلسي أن يتلاحم معها ، وإن يرهف إحساسه ويحس بالجمال ، حتى أنَّ الشخصية الأندلسية كانت تذوب وتتلاشى كلما تلاقت بالطبيعة وتدفعها إلى الاستجابة والاستمتاع بها. وبما أنَّ الشعراء هم أصحاب الحس الرهيف والذوق الرفيع والخيال الخصب ، فقد كانت استجابتهم لجمالها ومفاتنها وسحرها أشد ، فأصبحت الوسادة الخضراء والروح النفاذة إلى مخيلتهم ، لذلك هامت بها نفوسهم وتعلَّقت بها قلوبهم[18]. حتى أنَّهم غاصوا في ما كل يُرى ويُسمع ويُلمح في البساتين والرياض والأنهار والجداول والينابيع ، وفي الجبال ، وفي السهول الفيحاء ، فأعجبتهم الأزاهير والزنابق وألوان الورد البديع الحسن، الرائق المنظر . ورصدوا ملامح الجمال فيما تدخَّلت فيه الصناعة والبراعة ومهارات الفلاحة والزراعة . ووقف الشعراء عند معاهدهم ودورهم ، وعند زوارقهم وسفنهم ، وسجَّلوا أعيادهم وأفراحهم ومواسمهم وعاداتهم . وأفاضوا في بث عواطفهم على ما كانوا يصفونه ممَّا حولهم في تناسق وانسجام ، واستغراق في حب الطبيعة ، والائتلاف مع معطياتها في كل مكان . ونجد أنَّ إعجاب الشعراء الأندلسيين بالطبيعة جاء في أشعار كثيرة شملت عصور الأندلس جميعها ، ويندر أن يخلو ديوان شعر أندلسي من وقفات عند الطبيعة ، واستحسانها ، والعيش في ظلالها ، ووصف ما يروق للشعراء منها ، في انفعال ومحبة وارتباط[19]، حتى أنَّهم ربطوا الطبيعة بكل موضوع ، وجعلوها متكأً ومفترشاً للموضوعات الأخرى ، فإذا تغزل الشاعر جعل الطبيعة إطاراً لغزله ، وإذا وصف الراح اتكأ على الطبيعة وأفاض في وصف محاسنها حتى أنَّه يكاد أن ينسى موضوعه الأصلي ، وإذا حنَّ إلى بلاده تذكر طبيعتها الجميلة ، وإذا مدح أو رثى أخذت صور الطبيعة تنبت في أبياته . فيما نجد بعض الشعراء يعبِّرون عن شغفهم بالطبيعة في قصائد مستقلة بذاتها ، يصفون فيها الطبيعة وصفاً خالصاً . وقد سجَّل الشعر الأندلسي مزية وخصوصية في هذا الغرض ، وربما تفوَّقوا على المشارقة في ذلك . الأمر الذي يدلل على شدة ارتباط الأندلسيين ببيئتهم ، وتعلقهم بمظاهر الجمال في بلادهم، وهو انعكاس للشعور الوطني في نفوس الأندلسيين ، وتعبير عن نزعة أندلسية

قوية تأصلت في نفوس الشعراء ، وظهرت في شعرهم بشكل واضح[20]. والشواهد على ذلك كثيرة ومتنوعة في الشعر الأندلسي لا يتسع المقام لذكرها .

أمَّا فيما يتعلق بالشاعر ابن الأبَّار فشأنه شأن أغلب شعراء الأندلس فقد فُتن بالطبيعة، وارتبط بها ارتباطاً نفسياً ، فكانت مصدر إلهامه ، والمعين الذي أمده بالصور المعبِّرة النابضة بالحركة والفاعلية الدلالية ، فعمد في كثير من المواضع إلى توظيف مظاهر الطبيعة ورموزها وأدخلها في نسيج نصوصه الشعرية ، لتؤدي دوراً تعبيرياً في تجسيد عواطفه ومشاعره وأحاسيسه .

المبحث الأول : مظاهر الطبيعة الحية

تتمثَّل الطبيعة الحية بالإنسان والحيوان لكن جودت الركابي قصرها على الحيوان بقوله: ((ويُقصد بالطبيعة الحية ما اشتملت عليه من أصناف الحيوان ما عدا الإنسان))[21]. وهي كثيرة ومتنوعة إلا أنَّ أبرز رموز الطبيعة الحية التي سجَّلت حضوراً لافتاً في ديوان ابن الأبَّار الحمام، وقد ارتبط هذا الطائر في أغلب المواضع بحزن الشاعر وبكائه، ومحاولته إبراز مشاعره وأحاسيسه ، مستفيداً من إمكاناته التعبيرية في رسم صور معبِّرة عن آلامه وأحزانه ، لذلك كانت علاقة الشاعر بهذا الطائر علاقة وجدانية .

ويبدو أنَّ اهتمام الشاعر بالحمام يعود لأسباب متعددة ، من أبرزها ما ينماز به هذا الطائر دون غيره من الطيور من طباع وسمات جعلته قريباً إلى النفس ، فذكر الجاحظ من صفاته ((حبُّه للناس ، وأنس الناس به ، وأنك لم ترَ حيواناً قط أعدل موضعاً ، ولا أقصد مرتبة من الحمام))[22]، فضلاً عمَّا عُرف عنه من حسن الصوت والهديل والدعاء والترجيع[23]. وعن طباع الحمام نُقل عن الأبشيهي قوله: ((ومن طبعه أنه يطلب وكره ولو كان في مسافة بعيدة ولأجل ذلك يحمل الأخبار ، ومنه من يقطع عشرة فراسخ في يوم واحد وربما صيد وغاب عن وطنه عشر سنين وهو على ثبات عقله وقوة حفظه حتى يجد فرصة فيطير ويعود إلى وطنه))[24]. وقد احتل بكاء الحمام على الهديل متسعاً من معتقدات العرب في القدم ، فنُقل عنهم أنَّ الهديل فرخ كان في عهد نوح عليه السلام فصاده بعض الجوارح وأنَّ جميع الحمام يبكيه إلى يوم القيامة[25]، لذلك اتجه الشاعر نحو الحمام إذ وجد فيه ((وسيلة للتعبير عمَّا رسخ في الروح من مكبوت نفسي مؤلم ، وللتعبير عن الاستجابة الخاصة التي يبديها الإنسان الشاعر للطبيعة ، فالعذاب والنوح الذي تعلنه الحمامة هو المكافئ الخارجي لانفعال الشاعر الداخلي ولحزنه وألمه ونوحه على من

رحل منه ، وكأن ما تعلنه الحمامة ينسجم مع ما يكنه الشاعر في نفسه ، وكأنها تعبِّر عن مكبوته وما يحتضنه من ألم))[26]، وبذلك ((أصبحت العلاقة بين الشاعر والحمامة علاقة تعاطف قائمة على المشاركة الوجدانية التي تربطهما معاً))[27] .

وقد وجد ابن الأبَّار في الحمامة خير ما يترجم حالته النفسية ، وما يكتنز بداخله من آهات وهموم ، فهما يشتركان في الحزن وتحمل الأذى ، لذلك مثَّلت الحمامة للشاعر معادلاً موضوعياً وشعورياً ، فـ((الطريق الوحيد للتعبير عن الانفعال في صورة فنية هي العثور على معادل موضوعي ، وبعبارة أخرى على مجموعة من الأشياء أو على موقف أو على سلسلة من الأحداث تكون بمثابة صورة للانفعال الخاص))[28] . وقد نظر ابن الأبَّار إلى الحمامة من منظار نفسي فيقول في إحدى قصائده :[29]

لمَّا بكت من غيرِ دمعٍ جرى أعارها أدمُعَهُ المُزْنُ
فكلّما اهتزَّ جناحٌ لها نظَّمَ ما ينثُرُهُ الغصنُ

فالشاعر يتفاعل نفسياً وشعورياً مع الحمامة فيصف لنا حزنها ووجعها وبكاءها ، ولما نشف دمعها لشدة ما بكت منحها الغيم الدمع لتستمر في معاناتها ، ولعلَّ ذلك ينطبق على حاله وقد طال حزنه في ظل النكبات والمصائب التي حلت به ، لذلك فهو يعيش مع الحمامة مشاركة وجدانية ، وقد عملت بدورها على منح الشاعر متسعاً للبوح بآلامه وشجونه .

والحمام يثير في الشاعر مشاعر الحنين والشوق لوطنه إذ يقول :[30]

أنوحُ حماماً كلَّما ذُكِرَ الشرقُ وأبكي غماماً كُلَّما لمعَ البرقُ
ويغبطني في سكْبِ أدمُعي الحيا وتحسدُني في نَدبِ أربُعي الورقُ

فالنص يكشف عن مأساة الشاعر وحيرته الواسعة وهو يتلوى حزناً وشوقاً لوطنه ، فحاول أن يقلل من الضغط النفسي ؛ بسبب البعد والفراق ، لذلك انفجرت مشاعره وعواطفه نوحاً وبكاءً عن طريق الفعلين (أنوح ، وأبكي) ، وهو بذلك يحمِّل لغته الشعرية مآسيه ومحنه في تشكيل صوري قائم على التشبيه ، مستعيراً من الطبيعة (الحمام ، والبرق) لتجسيد موقفه الشعوري ، فنوحه يشبه نوح الحمام كلما ذُكر الشرق، وبكاؤه كالغمام الممطر عند لمع البرق ، فيثير فيه ذلك ذكريات الأحبة والديار التي فارقها . وبذلك أنتج الشاعر بنية نصية ذات تشكيل صوري عملت الطبيعة على تحديد ملامحه ، واستيعاب مشاعره الحبيسة .

وفي لوحة أخرى جعل الشاعر من الحمامة مثالاً يعكس حالته النفسية التي يشـــوبها الألم والحزن ، إذ يقول :[31]

لمَّا بكيتُ بكى يساعدني الحَيا فدمـــوعُهُ من رِقـــةٍ ليَ تهمعُ
أشدو بذكراكم وأنـــشجُ لوعةً وكذا الحمامةُ حينَ تندبُ تسجعُ
يا برحَ شـــوقي للذينَ تحمَّلوا وأقـــامَ حبُّـــهم بقلـــبي يربـــعُ
أضحت بلاقـــعَ منهمُ داراتهُم فالصـــدرُ إلا من شجوني بلقعُ

يحيلنا هذا المقطع الشعري إلى معاينة حياة الشاعر المثقلة بالهموم والآلام ، وهو يعاني تمزقاً نفسياً وأزمات نفسية خانقة جسَّدها عن طريق الألفاظ (بكيت، بكى، دموعه، تهمع ، أشدو، أنشج، لوعة، تندب، يسجع، برح، شوقي، بلاقع، شجوني، بلقع)، وهي ألفاظ نابعة من تجربة مريرة عاشها الشاعر ، جاءت لتصف لنا حزنه وأشواقه التي تلتهب في صدره ، لذلك كان البكاء دليلاً على حاجته للتنفيس عن همومـــه المتراكمـــة بداخله ، مستمداً ذلك من الحمامة لتكون معادلاً شعورياً لحالته النفسية المنكسرة . وقـــد اختلط لديه البكاء بالغناء فيفرح ويشدو بذكر أحبابه ، ويبكي بلوعة على فراقهم ، بمـــا يوحي باضطراب مشاعره وعدم قدرته على مقاومة الواقع المؤلم الذي يعيشه .

ويجعل في قصيدة أخرى بكاء الحمام شاهداً على حزنه ومأساته لمن ينكر عليه ذلـــك فيقول :[32]

ما نفضنا بالتصـــابي راحةً قد شـــددناها عليها مُهـــجا
لا ولا استدرجنا اليأسُ إلى سلـــوةٍ غرَّ بها مُســـتدرجا
ولئـــن أنكـــرتم ما ندَّعـــي فاسألوا عنَّا الحمامَ الهزِجا
هل بكـــى إلا بكـــينا معـــه وسلكنا في الأسى ما نَهجا
لم يكـــن للنومِ في أحداقِنا دونَ إذنٍ منكـــمُ أن يلـــجا

نظراً لما يعانيه الشاعر في ديار الغربة بعيداً عن أحبته وأهله ، وقد استعرت بأحشـــائه نار الغرام والشوق ، توجه بمشاعره نحو الحمام ليسقط ما بداخله على هـــذا الطـــائر ، ويشركه في همومه وأحزانه ، فتوحد معه شعورياً بوصفه رمـــزاً للحنـــين والوفـــاء ، محاولاً إشعار محبيه بالحالة المأساوية التي وصل إليها .

ولجوء الشاعر نحو الحمامة دليل على غربته ووحدته ، فما من سبيل أمامه ســـوى التوجه بمشاعره وأحاسيسه نحوها ، لتكون شريكته في إقامة المأتم والعزاء إذ يقول :[33]

وحمامةٍ ناحتْ فنحتُ إزاءها فلو استمعتَ لقُلتَ : هذا المأتمُ

أبكي وتبكي غيرَ أنِّي مُعربٌ عمَّا أكــنُّ منَ الغرامِ وتُعــجمُ
وأردِّدُ الزفراتِ أثــناءَ البُكا وتظــلُّ فوقَ أراكِــها تــترنَّمُ
فإذا أصاخَ لشدوها وتأوُّهي واعٍ يقــولُ : خليــَّةٌ ومتــيَّمُ

ففي ظل الغربة وهو يكابد ألم الفراق والهجر لم يجد الشاعر من يشاركه معاناته ويسـمع شكواه ، لذلك توجَّه بمشاعره نحو الطبيعة ليبوح لها بانفعالاتــه وأحزانــه ، فاختــار الحمامة لتشاركه العزاء والبكاء على مصيبته ، مستقياً من الطاقة التعبيرية لهذا الطــائر دلالات النوح والبكاء بما يتناسب مع حالته النفسية ، فالنوح والبكاء يدلان على انهيــار الشاعر وتراكم أحزانه وإنَّه لم يعد قادراً على كبتها في صدره ، لذلك كان بحاجة إلــى التسرية والتفريج عن نفسه .

ويتمثل الشاعر الحمام للدلالة على رقة عواطفه ورهافة مشاعره وأحاسيسه وقد أضناه الشوق ، فيصف لنا حزنه ومعاناته قائلاً :[34]

فتضرَّمتْ من لوعــةٍ أنفــاسُهُ وتصرَّمتْ في حَسرةٍ آمــادُهُ
وكأنَّما صــوبُ العهادِ دمــوعُه وكأنَّما شوكُ القــتادِ مهــادُهُ
واهــاً لهُ من مُفــردٍ بنحــيبهِ لو كانَ يَجْمَعُ شمــلَهُ إفرادُهُ
يرتاحُ للروضِ المَشُوق حمامُهُ ويحنُّ للبرق الخــفوق فؤادُهُ

عمد الشاعر هنا إلى بيان معاناته ومدى الألم الذي يعتصر قلبه ، لذلك جاءت أغلب ألفاظ النص الشعري مرآة عكست أوجاع الشاعر وآلامه . وكأن النص أصبح صــدى يــردِّد آهات الشاعر وهمومه الذاتية . ممَّا أدى إلى اتساع صوت الحزن الذي عبَّر عنــه بلغــة حزينة باكية دلَّلت على إبداعه في استغلال الإمكانات اللغوية وتطويعهــا للتعبيــر عــن معاناته عن طريق الإتيان بصيغ لغوية متوازنة تمثَّلت في (تضرمت ، تصرمت) ، و(أنفاسه ، آماده ، مهاده ، إفراده ، فؤاده) ، و(صوب ، شــوك) ، و(العهــاد ، القتاد) ، و(المشوق ، الخفوق)، وقد نسجها الشاعر لتكون لوحة تعبيريــة جــاءت انعكاساً لحالته الشعورية التي هيمن عليها الحزن والأسى. وممَّا أسهم في إخراج أحاسيس الشاعر ومشاعره الحزينة تكرار أحرف المد بصورة ملفتة للنظر وهو ما قصده الشــاعر للبوح بما يختلج بداخله من أوجاع، نظراً لما يحتويه صوت المد من طاقة صوتية عالية قادرة على منح الشاعر متسعاً للتفريج عن همومه وأحزانه .

وله قصيدة أنشأها ببجاية لما غضب عليه أبو زكرياء يتوسل بولي العهد ، محاولاً بيان معاناة أسرته من أجل نيل رضا ممدوحه وعطفه عن طريق تشبيه حزن أبنائه وبكائهم بترنم الحمام في أعشاشه ، إذ يقول :[35]

ولولا أُطيفالٌ طواهمْ طواهمُ فأعظمُ ما يبقى جلودٌ وأعظمُ
أسا في الأسى عادتهم والدتهم فما منهمْ إلا يتيمٌ وأيِّمُ
همُ أبداً همِّي فليلي أليلٌ بمَعجزتي عنهمْ ويومي أيومُ
جوانحُهُمْ تذكُو لهيباً وتلتظي وأعينُهُمْ تهمي نجيعاً وتسجُمُ
تخالهُمُ في شجوهِم وانتحابِهِمْ حماماً على أفنانها تتَرَنَّمُ

وفي موضع آخر ذكر الشاعر من أصناف الحمام الورقاء وهي ((الحمامة التي يضرب لونها إلى خضرة والورقة سواد في غبرة))[36]. متخذاً منها دليلاً على ضياع مدينته بلنسية ، ومدى الخراب الذي حلَّ بها ، في قصيدة استنهض فيها أبا زكريا الحفصي من أجل استنقاذ الأندلس بقوله :[37]

بأبي مدارسُ كالطلولِ دوارسٌ نسختْ نواقيسُ الصليبِ نِدَاءَها
ومصانعٌ كسفَ الضلالُ صباحَها فيخالُه الرائي إليه مَسَاءَها
راحتْ بها الورقاءُ تُسمَعُ شدوها وغدتْ تُرجِّعُ نوحَها وبكاءها

فالنص المنتج يُعطي صورة واضحة لما حلَّ بمدينته المنكوبة ، ومن يطالع النص يلاحظ أنَّ هنالك نغماً حزيناً وبكائياً ينساب من زواياه ، انبعث بحرقة وألم من أعماق الشاعر وهو ينعى مدينته ، ويستصرخ أهل الهمة والحمية لإنقاذها وإعادة الروح إلى جسدها الذي عبثت به أيادي الشر الآثمة ، لتحوِّلها إلى أطلال بالية وقد علا فيها صوت نواقيس الكنائس بدلاً من التهليل والتكبير والأذان في مساجدها ، بما يوحي بقوة الهجمة النصرانية التي عصفت بمدينته بلنسية ، وما أحدثته من دمار بآثار المسلمين فيها . وقد استعان الشاعر بالحمام في تعزيز دلالات الصورة السوداوية التي رسمها لمدينته ، متخذاً من نوح الحمام وبكائه دليلاً على الواقع المزري الذي حلَّ بها ، بهدف إثارة الحمية والنخوة في الحفصي ، لعله يعيد لبلنسية عزها وشموخها ونضارتها .

ووجد في نوح الحمائم ما يعينه على تجسيد مشاعره تجاه من يرثيه ، ومن ذلك ما قاله في رثاء أم الخطيب الفاضل أبي عبد الله بن قاسم فيقول :[38]

ويمَّمها الرضوانُ أُمَّاً كريمةً لأوحدَ مخصوصٍ بِغُرِّ المكارمِ
تخلَّت عن الدنيا وخلَّت مُسامياً لها طيبَ أنفاسِ الرياحِ النَّواسمِ

فإنْ وكَفَتْ سُحْمُ الغمائمِ بعدها فقد هتفتْ بالنوحِ وُرقُ الحمائمِ

فالشاعر في هذا النص يستلهم من الحمام دلالات النوح والأنين ، فنوح الحمام على فقد أم الخطيب الفاضل ينطوي على غايات دلالية متعددة ، من أهمها أنَّ الشاعر سعى إلى منح حزنه بعداً أسطورياً ، من أجل إشاعة أجواء الحزن ، ومنحها الاستمرارية بما يتلاءم مع رغبته في إظهار أساه وألمه .

ويقول في مرثية أخرى :[39]

سفحتُ عليها الدمعَ أحمرَ وارساً كما نثرَ الياقوتَ أيدي النَّواظمِ

وسامرتُ فيها الباكياتِ نوادباً يؤرِّقْنَ تحتَ الليلِ وُرْقَ الحمائمِ

يقف الشاعر في هذا النص ليصف لنا ما يكنه بداخله من مشاعر وعواطف تجاه الفقيدة ، وهو يشارك الباكيات النوادب العزاء في بناء صوري يُظهر الشاعر وهو يبكي بحرقة وألم بكاءً غزيراً بدموع حمراء ، للدلالة على عمق الأثر الذي تركه فراق الفقيدة على نفسية الشاعر ، ممَّا حدا به إلى مشاركة المعزيات في إقامة العزاء والبكاء ، مشبهاً بكائهنَّ وحزنهنَّ بالحمائم اللاتي عُرفن بالحزن الشديد . وقد اختار الشاعر الحمام لارتباطه بالنوح والبكاء وهو ما يلبي رغبته في إبراز مشاعر الحزن .

ومن رموز الطبيعة الحية الأخرى التي جسَّدت أحزان الشاعر الإبل ، ففي إحدى قصائده وقد حرقه الشوق إلى دياره وأهله وهو في بلاد الأرغونيين ، يستدعي الإبل العشار ، لتكون عماد الصورة الشعرية ، إذ يقول :[40]

إلى الإلفينِ من أهلٍ ودارِ تأوَّبني اشتياقي وادِّكاري

وحنَّ القلبُ أعشاراً إليها حنينَ الوالهاتِ من العشارِ

فبتُّ كأنني توقاً وشوقاً على مثلِ الأسنَّةِ والشفارِ

وما حشو الضلوعِ سوى أُوارٍ وما نومُ الجفونِ سوى غرارِ

ففي هذا المقطع الشعري يرسم الشاعر مشهداً معبِّراً عما يختلج بداخله من مشاعر الحنين والشوق إلى أهله وديارِه ، متخذاً من الإبل العشار منطلقاً لتجسيد المعنى وتدعيم موقفه الشعوري ، نظراً لما تحمله العشار من رمزية الحنين الجارف ، وما يستبطنه هذا الرمز من دلالات يبدو أنَّها قادرة على منح الشاعر شحنة تعبيرية تسهم في تجسيد حالته النفسية المضطربة وهو يرزخ تحت وطأة الاغتراب ، حينما يشبه حنينه إلى أهله ووطنه بحنين العشار الوالهات ، إذ يستقي منها دلالات الحنين الممزوج بالوفاء ويسقطها على نفسه ، الأمر الذي كشف عن إحساس عميق بالحزن يعيشه الشاعر أوصله إلى حالة من

الألم والمرارة . كما أنَّ التناسق والمجانسة بين (أعشار، العشار)، و(توقاً، شوقاً)، و(العشار، الشفار)، و(أوار، غرار) قد ولَّد كثافة صوتية أضفت على النص حركية نغمية ، وفاعلية دلالية جسَّدت حاجة الشاعر لإفراغ ما يختزن بأعماقه من آلام وآهات . فالمبدع حينما يصوغ لوحته الشعرية فإنَّه يؤثثها من عناصر متعددة ، إذ يستدعي اللغة المدهشة ولهيبها المستعر ، من أجل منح تجاربه الشعورية مناخاً جديداً يعزِّز من خصوبة القصيدة ، ويمنحها وهجاً شعورياً يفضي إلى تحريك مشاعر المتلقي[41].

المبحث الثاني : مظاهر الطبيعة الصامتة

تتمثَّل الطبيعة الصامتة بمظاهرها ووجودها المتجسد في سهولها وبحارها وسمائها وبواديها وحدائقها وحقولها وما إلى ذلك ، فضلاً عن الطبيعة الصناعية التي عمل الإنسان في تأليفها وتنسيقها كالقصور والزخارف والبرك وأدوات الحرب وما شابه ذلك[42]. وقد عدَّها جودت الركابي المظهر الحقيقي الأكثر ملائمة لمفهوم الطبيعة ، والأكثر إيحاءً للحس الطبيعي ، إذ تُحدث في النفس ذلك الحس الشعوري الذي ينبض بجمالها ، فتكون مرتعاً لخياله ، ومقيلاً لأفكاره ، فهي تنشي الشاعر باهتزاز أزهارها، وانسياب جداولها ، وتلألؤ طلها، وهدوء ظلها، بما يسهم في فتح قريحته الشعرية فيجود بالكلم الخالد واللوحة الشعرية . أمَّا أصناف الحيوان ومنشآت اليد البشرية فما هي إلا اهتمامات منفصلة عن روح الطبيعة بمعناها الحقيقي[43]. وقد احتلت مظاهر الطبيعة الصامتة حيزاً واسعاً في تجربة ابن الأبَّار، وهي في كثير من المواضع قد لامست وجعه وحاكت معاناته ، ومن أبرزها البرق . وقديماً كان العرب ينظرون إلى البرق من منظار نفسي ، إذ كانوا يترقبونه ويعدّون خفقانه ، فإذا عدَّوا له اثنتين وسبعين لمعة ، علموا سقوط الغيث على أثره ، لينعكس إيجاباً على المكان . وربما تكهنوا في هذا الوميض أنه قادم من جهة الحبيب ، فيتفاءلوا ويبتهجوا بهذا الدليل ، وهذا ما يتخيله المشتاق والمتطلع إلى من يهوى[44]. وقد استوحى ابن الأبَّار من البرق ارتباطه بالشوق والحنين ، إذ يقول :[45]

أيُّها العذّال في أدمعنا	**حدِّثوا عن بحرها لا حرجا**
واحكموا إنَّ البكا لجَّ بنا	**فعبرنا عبرتيه لُججا**
ما لقلبي لا يجوز المنحنى	**خطفةٌ للبرق إلا اختلجا**
أبتِ الفوزَ عليهِ فازةٌ	**هيَّجَ الوجدُ بها ما هيَّجا**
قسمتهُ بينَ يأسٍ ومُنىً	**فغدا مكتئباً مبتهجا**

ففي هذا المقطع الشعري يبوح الشاعر بما يعتريه من آلام وهموم لما لاقاه من فراق أحبته، وقد اتخذ من الحوار وسيلة لتجسيد معاناته حينما يحاور العذال ويدعوهم إلى أن يخبروا الناس عن معاناته وأحزانه ، واصفاً دموعه بالبحر في غزارتها ، ثم نجد في النص صراعاً بين الشاعر وقلبه فيلومه على ضعفه بعد أن خسر محبوبته (فازة) التي زرعت فيه الأمل واليأس حتى أصبح منقسماً بين الفرح والكآبة . فقلبه يبتهج بذكرها ، ويكتئب حزناً على فراقها . وبما أنَّ البرق ((عامل مهم لتهييج الذكرى والشوق في نفوس الشعراء المغتربين عن أوطانهم وأحبتهم ، وهم في حال من القلق والحيرة والحنين والرجاء والتمني))[46]. فإنَّ الشاعر جعل من البرق شاهداً على صدق مشاعره تجاه محبوبته ، وارتباطه شعورياً بها .

وفي رثاء أبي زكريا نجد أن البرق والطير الساجع يحركان مشاعر الشاعر ، ويثيران بداخله الحزن والوجع فيقول :[47]

أن تخلُ منهُ منازلٌ ومطالعٌ لم تخلُ منهُ جوانحٌ وضلوعُ
بأبي محاسنَه التي وُصِلَ الثرى منها بما أنا دونَه مقطوعُ
لو رُمتُ أن أنساهُ هاجَ تذكُّري برقٌ لمُوعٌ أو أغنُّ سجوعُ

حملت مرثية الشاعر أحزانه وآلامه على فقد أبي زكريا ، ففراقه قد ترك جرحاً وأثراً عميقاً في نفوس محبيه ، فهو إن غاب جسداً فإنَّه حاضر في وجدان الشاعر ، جاعلاً البرق والطير رمزين للتذكر ، فهما يذكرانه بالفقيد كلما حاول نسيانه .

فيما وظَّف ابن الأبَّار الريح في مواضع مختلفة من ديوانه ، لبيان حزنه العميق . ومن تجليات ذلك وفي لحظات الغربة بعيداً عن وطنه بلنسية ، تفجَّرت في داخل الشاعر مشاعر الحزن حتى وصل إلى حد الانهيار ، فوجد أنَّه بحاجة إلى إنقاذ نفسه من التمزق والضياع إذ يقول :[48]

وطِّنْ على الدائبينِ : الدمعِ والشجنِ يا نادبَ الذاهبينِ : الأهلِ والوطنِ
واسكنْ إلى الصبرِ في إلمامِها نُوَبَا أودتْ على عَقِبِ المسكونِ بالسَّكَنِ
كزعزعِ الريحِ صكَ الدوحَ عاصفُها فلمْ يدعْ من جنىً فيهِ ولا غُصُنِ
ومكرهٌ أنا فيما قُلتُ لا بطلٌ فلا تخلني خَلِياً من جوى الحَزَنِ
هذا فؤادي كالبرق الخفوق أسىً وهذهِ أدمُعي كالعارضِ الهَتِنِ
براحتي رايةُ الأشجانِ أحملُها وإن غدا الجسمُ وهناً ليسَ يحملني

جاء النص انعكاساً لنفسية الشاعر المتأزمة ، إذ سعى جاهداً إلى رسم صورة مأساوية لما يعانيه في بلاد الغربة ، وقد وجَّه خطابه لذاته بفعلي الأمر (وطِّــن) و (اســكن) ، داعياً نفسه أن تتوطن على البكاء والحزن ؛ لأنه فارق أهله ووطنه ، ويدعوها أن تتحلى بالصبر في مواجهة النوائب والخطوب التي حلت به وبمدينته بلنسية ، بما يدلِّل على أنه يمر بحالة من الانهيار والانكسار ، فكان بحاجة إلى بث روح العزيمة والقوة للتغلب على حالة اليأس التي وصل إليها بفعل الفراق ، فما مر به من محن ومصائب شبَّهها بــالريح التي أهلكت كل شيء جميل ومورق ، ولم تترك أي مظهر للجمال من أغصان وثمــار وأزهار . و(الريح العاصف) هنا دلَّلت على أنها أداة للخراب والدمار ، و(الــدوح) تشير إلى الجمال والهناء والاستقرار في (بلنسية) . ويتواصل الشاعر في الإفــادة مــن مظاهر الطبيعة ، فيشبه قلبه بالبرق الخفوق ، وأدمعه بالسحاب الممطر ، من أجل رسم مشهد شعري مشحون بالمشاعر الملتهبة والنغم الحزين الذي هيمن عليه صوت الــدموع والبكاء .

ومن أنواع الرياح التي ذكرها الشاعر ريح السموم ، إذ يقول :[49]

يا أهــلَ ودّي لِــمْ أرومُ تــدانــياً ... منكمْ ودارِكُمْ تبـــينُ وتنزحُ
إنْ كانَ جســمي شطَّ عن مثــواكُمُ ... فالقلبُ ثاوٍ بينــكمْ لا يــبرحُ
هذي الجوانحُ بالجــوى ممــلوءةٌ ... ممَّا أمــيلُ لكمْ وممَّا أجــنحُ
لا تحسبوا الريحَ السمومَ هي التي ... هبَّتْ عليكُمْ في الهواجرِ تلفحُ
أنفاسيَ الصُعــداءُ تلــكُم هاجَــهَا ... شوقٌ إليكُمْ بالفــؤادِ مُــبرِّحُ

يكشف النص عن ثنائية متضادة بين الثبات والتغير حينما يخاطب الشاعر أحبابــه وقــد بعدوا عنه ، وتبدو الثنائية بين جسم الشاعر وقلبه ، جسمه المتحول الذي بُعد عــنهم ، وقلبه الثاوي بينهم لا يتحرك ، وهذا الانفصال بين جسم الشاعر وقلبه جاء ليكشف لنــا عن الواقع المؤلم الذي يعيشه ، وفي ظل التنازع حاول أن يبرهن على التزامــه بحبــه ودفاعه عنه ، لأن القلب هو مركز الأحاسيس والمشاعر ، ومأوى الحــب والهــوى . فالنص يحمل في طياته صوراً ودلالات عبَّرت عن آلام الشاعر وشجونه ولوعته حينمــا استحضر من الطبيعة (ريح السموم) بما تحمله من القوة والحرارة الشديدة ، ليدخلها في فضائه الشعري لتكون الأداة القادرة على تجسيد حالته الشعورية التــي يكتنفهــا الحــزن والأسى ، مشبِّهاً أنفاسه التي هيجها الشوق إلى أحبته بريح السموم ، ليدلل علــى شــدة التمزق النفسي والشعور بالضياع في ظل الفراق والهجر .

وفي موضع آخر نجد أنَّ الشاعر يوظِّف ريح السموم لتجسيد انفعالاته وعواطفه بقوله[50] :

أعينُوا فقدْ جئتُ مُستحملاً يضيقُ بحملِ الصدودِ احتمالي
ولا تعذلوا مُستهاماً هفاً فأدنى التباريحِ أقصى الخبالِ
ضُحيتُ لبؤسي بحرِّ السمومِ وأنتم نعمتم ببردِ الظلالِ
على ظاهري مَشْعَرٌ بالذبولِ وفي باطني مِسْعَرٌ للذُّبالِ
فبُلُّوا ظمائي ولوْ بالنسيمِ وأبقُوا ذمائي ولوْ بالخيالِ

يحمل النص في طياته عتاباً مؤلماً وجَّهه الشاعر لأحبته بلغة مشحونة بالألم واللوعة ، نظراً لما حلَّ به ، فعمد إلى تجسيد أجواء الحزن التي يعيشها عن طريق البناء المتضاد ، فهو يعيش حالة مؤلمة بائسة فعبَّر عن مأساته وكأنه أُصيب بريح السموم في نهار شديد الحرارة وهم يعيشون في النقيض من ذلك تماماً ، فهم يتنعمون بالبرد في الظل ، وهو تعبير كنى به عن سوء حالته وحسن أوضاعهم ، ثم يواصل الشاعر في وصف معاناته فيصف حاله بذبول ظاهره واحتراق باطنه ، فيطلب من أحبته أن يبلِّوا ظمأه ولو بالنسيم، وأن يبقوه حياً وينقذوا حياته ولو في الخيال والأحلام ، وهنا بلغ الشاعر أقصى درجات الضعف والانكسار النفسي .

ويذكر في موقف آخر ريح الصبا ، ويُقال إنَّها سُميت بذلك ؛ ((لأن النفوس تصبو إليها لطيب نسيمها وروحها ، والصبوة الميل . وجاء في بعض الآثار: ما بُعث نبيٌّ إلا والصبا معه ، وهي الريح التي سُخرت لسليمان (عليه السلام) ... وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : نُصرت بالصبا ، وأُهلكت عاد بالدبور))[51]. وقد كانت ريح الصبا تثير في الشاعر مشاعر الشوق والحنين ، إذ يقول :[52]

لا تصدُّوا فربَّما ماتَ صدًّا مستهامٌ لسلوةٍ ما تصدَّى
جعلَ السهدَ في رضاكم كراهُ واكتسى في هواكمُ السقمَ بُردا
رامَ أن يُخفي الغرامَ ولكن لم يجدْ من إبداءِ خافيهِ بُدَّا
كلَّما هبَّت الصبا ذكرَ الشو قَ ففاضت عيناه شوقاً ووجدا
وإذا بارقٌ تألّقَ في المُز نِ حكى ذا وذاك ودْقاً ووقْدا

قدَّم الشاعر نصاً شعرياً مليئاً بمشاعر الحزن والشوق والوجد وقد اضطرمت بداخله لواعج الحنين واللهفة وهو يأمِّل نفسه بالعودة إلى موطنه بلنسية ، ولم يعد بإمكانه إخفاء

مشاعره وأحاسيسه ، فهبوب ريح الصبا يهيج بداخله نار الشوق ، ويذكّره بموطنه فتفيض عيناه ألماً وشوقاً ، ولمعان البرق في الغيوم يوقد في أحشائه نار الحزن والوجع .

أمَّا الماء وما يحدث له من تغييرات جغرافيِّة فقد كان حاضراً في دائرة الحزن التي تحيط بالشاعر ، فيوظِّف المد والجزر بقوله :[53]

يقولونَ اتبعتَ الصبا آهَةَ الهوى ... فقلتُ ارتشافُ الراحِ يتبعهُ السُّكْرُ
صبرتُ إلى أن أومأتْ بسلامِهَا ... فلمَّا استقلَّ الركبُ أسلمني الصبرُ
ومن أينَ أو كيفَ التجلُّدُ للنوى ... ومدُّ الأسى في القلبِ ليسَ لهُ جَزْرُ
حياتي هجرٌ كلُّها وقطيعةٌ ... أما آنَ أنْ تَفْنَى القطيعةُ والهجرُ

استطاع الشاعر عن طريق الحوار أن يصوغ مشاعره الوجدانية في نسيج النص الشعري، لبيان الألم الذي يعتصر قلبه ، فالقصيدة تعج بالانفعالات الحزينة ، وتصوِّر لنا شعوراً بمأساة الشاعر ، فعمد إلى إظهار تجلده وتمسكه بالصبر إزاء الفراق ، إلا أنه سرعان ما يعلن انكساره وانهياره ، وتجلى ذلك في طرح الأسئلة (من أين أو كيف ؟) التي عكست مدى تمزق الشاعر وضياعه ، ودلَّلت على حيرته وهو يواجه المصائب والنكبات ، فالشاعر يعيش صراعاً مريراً يبدو فيه خاسراً مستسلماً ضعيفاً وهذا ما تجلى في جوابه (ومد الأسى في القلب ليس له جزر) . وقد وظَّف من مظاهر الطبيعة (المد والجزر) وجعلهما الأساس في تكوين الصورة الشعرية حينما شبَّه الأسى الذي يختزنه قلبه بالماء وفي حالة مد وعلو دائمة من دون أن يكون له انخفاض . متخذاً من التضاد بين (المد والجزر) وسيلة من أجل إثراء الصورة الشعرية ، ومنحها اتساعاً دلالياً بهدف تجسيد انفعالاته ومشاعره ، وتعزيز المعنى في ذهن المتلقي . بوصفه مركز الدلالة في النص والبؤرة التكثيفية للحزن والألم التي أشاعت أجواء الحزن ، وأسهمت في إيقاد جذوة النص ، وتفجير طاقاته الدلالية ، وقد أضفت عليه لحناً كئيباً وصبغته بالحزن واللوعة ، وجعلته يرتفع إلى مستوى التعبير عن الحالة المأساوية التي يعيشها الشاعر .

ويذكر الشاعر في قصيدة أخرى الطوفان وهو يشكو غربته مع أبي زيد عند الأرغونيين ، إذ يقول :[54]

غلبتْ عليَّ لبعدكم أشجاني ... وجفَا الكرى من بعدكُمْ أجفاني
وتضرَّمتْ بينَ الجوانحِ لوعةٌ ... إطفاؤها أعيا على الطُّوفانِ
هيهاتَ يدنو الصبرُ مني بعدها ... وأنا البعيدُ الأهلِ والأوطانِ
لو أنَّ ثهلاناً تحمَّلَ بعضَ ما ... حُمِّلتُهُ خرَّتْ ذُرى ثهلانِ

أسرٌ وقسرٌ لا قــرارَ عليــهما وتغــرُّبٌ عن أسرتي ومكاني

لو أنعمنا النظر في النص لوجدنا أنَّ الشاعر يتملكه حنين جارف نحو وطنــه وأهلــه ، فأمامنا شاعر مفجوع بضياع وطنه ، وقد ضاق به المكان ولم يعد قادراً على الصــبر ، فسعى جاهداً لأن يجد لمشاعره متنفساً للبوح بوجعه في ظل الصور المتوالدة التي حاكت وجعه وحزنه وما يكتنز بداخله من ألم . فالشاعر في ظل أجواء الفراق اســتولى عليــه الحزن ، وهو اعتراف بعجزه وعدم قدرته على مقاومة الفراق الذي سلبه الراحة والنوم . وفي البيت الثاني ترتفع لديه الشحنات الانفعالية ، حينما قام بإخراج مشاعره المكبوتة ، فأحشاؤه تحترق لوعة وحزناً ، ونار الحزن التي أحرقته لا يمكن إطفاؤها ، فقد أعجزت حتى الطوفان ، دلالة على سعة حزنه وألمه ، وهي صــورة أثــرت الــنص دلاليــاً ، ومنحته طاقة تعبيرية جسَّدت لنا تجربة الشاعر بمشاعر صادقة ، إذ ((لابد أن يتــوافر في التجربة صدق الوجدان ، فيعبِّر الشاعر فيها عمَّا يجده في نفسه ويــؤمن بــه))[55]. فضلاً عن ذلك أضاءت جانباً من نفسية الشاعر المنكسرة بأوجاعها وآلامها .

ويشبِّه في صورة أخرى دموعه بالنار للدلالة على كثافة الحزن الذي خيَّم على حياته، إذ يقول :[56]

هل لمُعاني الهوى دواءُ أم هل لعاني الهوى فداءُ
وما لدمعي يعــودُ ناراً من شدَّةِ الشوق وهو ماءُ

يستهل الشاعر نصه بأسئلة سعى عن طريقها إلى إبراز معاناته بفعل العشق ، وما جلبه له من آلام وهجر وفراق ، وما تركه من آثار عميقة جعلته يبحث عمَّــن ينتشــله مــن الضياع والتشتت والتأزم النفسي ، فيتساءل عن الدواء النافع لمن يعاني من آثار الهوى ، وهو تساؤل قصد منه الإفصاح عن مشاعره وهواجسه . في حين أنَّ سؤال الشاعر عــن دموعه وقد تحولت إلى نار بعدما كانت ماءً يدلل على سعة الألم والمعاناة ؛ لأنَّ الــدموع لا تكون ناراً . وبذلك فإنَّ تساؤلات الشاعر قد استوعبت مشاعره ومنحتها متسعاً تعبيرياً عمَّق من أثرها في ذهن المتلقي ، وشحنت النص بفيض عاطفي حقَّق جواً نفسياً كئيباً ، وقد جاءت لمقتضيات نفسية وشعورية .

ومن مظاهر الطبيعة الصامتة التي استعان بها الشاعر (الأغصان) ، ومن ذلك ما قاله وهو يتشوق لوطنه :[57]

إلى أوطانهِ حــنَّ العــميدُ فظلَّ كأنَّه غُصــنٌ يميدُ
ومسقطَ رأسِهِ ذكرَ اشتياقاً فذابَ فُؤادُهُ وهوَ الحديدُ

يقدِّم الشاعر هنا صورة قاتمة لما آلَ إليه في بلاد الغربة بعيداً عن أهله ومسقط رأسه في مدينة بلنسية ، صورة تفوح منها رائحة الحزن واللهفة والشوق ، فحاول أن يُخرج صرخاته وزفراته عن طريق الصورة التشبيهية ، حينما شبَّه حاله وهو يضطرب شوقاً وحنيناً بالغصن المتحرك ، ولاشك أنَّ اختيار الغصن له أبعاد دلالية وتعبيرية فرضتها طبيعة التجربة القاسية التي مرَّ بها الشاعر ، إذ كان بحاجة إلى تصوير حالته النفسية المتأزمة المنكسرة ، فأمدته الطبيعة بصورة تعبيرية رائعة ألقت الضوء على جانب من شخصية الشاعر المسالمة المحبة للخير ؛ لأنَّ الغصن هو رمز للترافة والسلام . كما أنَّ وصف الغصن بالحركة بدلالة الفعل المضارع (يميد) جاء متناغماً مع ما يشعر به الشاعر من يأس واضطراب نفسي .

ونجد الغصن حاضراً في رثاء إحدى قريباته، وربما تكون زوجته أو ابنته ، إذ يقول :[58]

ذوت غُصُناً ماءُ النعيمِ يُميلُه بملءِ الحشايا والحشا وقدة الجمرِ
وأسلمَها الجيشُ العرمرمُ للردى كأن لم تكن أحمى من النُجُمِ الزُّهْرِ
يُذكِّرُ فيها الشمسُ والبدرُ كلَّما رميتُ بلحظي طلعةَ الشمسِ والبدرِ

استعان الشاعر بمظاهر الطبيعة فاختار (الغصن، الماء، النجم الزهر، الشمس، البدر)، لإظهار أساه وحزنه على فقيدته، مشبهاً موتها بذواء الغصن الذي يميله ماء النعيم ، ليدلِّل على رقتها وترافتها، وقد اقتادها الموت بقوة، مخترقاً كل خطوط الدفاع وما تتحصن به ، فقد كانت كالنجوم الزاهرة في حمى ومنعة ، لكنَّ يد الموت قد طالتها. بعد ذلك يشبِّهها بالشمس والبدر اللذينِ يذكرانه بها كلما شاهدهما ، وهو تعبير ينطوي على محمول دلالي يوحي بمنزلتها ومكانتها في قلبه .

الخاتمة :

وممَّا تقدَّم نجد أنَّ تأثير الطبيعة كان واضحاً في شعر ابن الأبَّار ، عن طريق استعانته بكثير من مظاهرها ورموزها وفي مواقف متعددة بما ينسجم مع حالته النفسية التي يشوبها الألم والحزن ، وهو يئن تحت وطأة الاغتراب ، وقسوة الظروف التي عاشها ، الأمر الذي ولَّد ضغطاً نفسياً انعكس على نصوصه الشعرية ، وطبعها بعضها بميسم الحنين والشوق لمدينته بلنسية التي طالتها يد الخراب والدمار بعد وقوعها تحت احتلال النصارى ، فكان ذلك مبعثاً للألم والوجع والاحساس بالضياع والتمزُّق . ممَّا

جعله يلجأ للطبيعة لإفراغ شحنات من آلامه وهمومه ، فاختار من مظاهرها ورموزها ما يلامس معاناته ، ويجسِّد حالته الشعورية ، ويعمل على إخراج مشاعره وأحاسيسه المكبوتة في صور شعرية بدا فيها جلياً انكسار الشاعر وانهياره النفسي . وقد كشف البحث عن هيمنة الحمام في الشواهد التي اخترناها ، نظراً لما ارتبط به هذا الطائر من دلالات النوح والبكاء والحنين الممزوج بالوفاء ، وهو ما كان يبتغيه الشاعر لبيان حزنه وشوقه لأهله وأحبته وديارة التي هجرها . فضلاً عن ذلك فقد وجد في نوح الحمام وبكائه ما يعينه على تجسيد مشاعره تجاه من يرثيه . فيما اختار الإبل ليصف شدة الحنين الذي يتملكه وهو في ديار الغربة . أمَّا فيما يتعلق بالطبيعة الصامتة فقد كانت حاضرة بقوة في تشكيل صوره الشعرية التي غلب عليها طابع الحزن والاغتراب ، وقد كشفت عن واقع الشاعر المثقل بالألم والوجع ، لذلك توجَّه نحو الطبيعة بغية بث شكواه ، والإفصاح عن مشاعره وأحاسيسه عن طريق توظيف الرياح والماء والأغصان والبرق .

الهوامش :

1- ينظر : ملامح الرمز في الغزل العربي القديم _ دراسة في بنية النص ودلالاته الفنية ، د. حسن جبار محمد شمسي : 93 .

2- م.ن : 94 .

3- ينظر : مرجعية الصورة في شعر الطبيعة في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة (نحو اعتماد المرجعية أساساً نقدياً) ، د. لمياء عبد الحميد القاضي : 247 .

4- ينظر : علم النفس والأدب ، د. سامي الدروبي : 27 .

5- ينظر : عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، أبو العباس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله (ت 714هـ) ، حققه وعلَّق عليه : عادل نويهض : 309 .

6- ينظر : المقتضب من كتاب تحفة القادم لابن الأبَّار (ت 658هـ) ، تحقيق : إبراهيم الإبياري : 14 .

7- ينظر : عنوان الدراية : 309 .

8- ينظر : المقتضب من كتاب تحفة القادم : 16 .

9- ينظر : الحلة السيراء، أبو عبد الله محمد بن الأبَّار القُضاعي البلنسي (ت 658هـ) ، حققه وعلَّق حواشيه : د. حسين مؤنس : ج1 : 14 وما بعدها .

10- المقتضب من كتاب تحفة القادم : 16- 17 .

11- ينظر : عنوان الدراية : 309 – 310 .

12- ينظر : الحلة السيراء : ج1 / 14 .

13- ينظر : المقتضب من كتاب تحفة القادم : 17 .

14- عنوان الدراية : 311 .

15- ينظر : م.ن : 313 .

16- ينظر : الحلة السيراء : ج1 / 16 .

17- ينظر : م.ن : 1 / 46 .
18- ينظر : الوافي في تاريخ الأدب العربي في الأندلس – موضوعاته وفنونه ، د. عمر إبـــراهيم توفيـــق : 264 .
19- ينظر : في الأدب الأندلسي ، د. محمد رضوان الداية : 113 وما بعدها .
20- ينظر : الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، د. فوزي عيسى : 127 – 128 .
21- الطبيعة في الشعر الأندلسي ، جودت الركابي : 12 .
22- الحيوان ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت255هـــ) ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون: 147/3.
23- ينظر : م.ن : 3 / 144 .
24- المستطرف في كل فن مستظرف ، شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشـــيهي (ت 850هـــــ) ، إشـــراف المكتب العالمي للبحوث : 2 / 124 .
25- ينظر : أدب الكاتب، عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت 276هـــ)، تحقيق: محمد الدالي : 189.
26- ملامح الرمز في الغزل العربي القديم : 116 .
27- م.ن : 116 .
28- النقد الأدبي الحديث ، محمد غنيمي هلال : 307 .
29- ديوان ابن الأبَّار ، أبو عبد الله محمد بن الأبَّار القُضاعي البلنسي (ت 658هـــ) ، قراءة وتعليق : عبد السلام الهرَّاس : 335 .
30- م.ن : 406 .
31- م.ن : 364 .
32- م.ن : 114 .
33- م.ن : 297 .
34- م.ن : 184 .
35- م.ن : 271 _ 272 .
36- حياة الحيوان الكبرى ، كمال الدين الدميري (ت 808هـــ) : 2 / 484 .
37- الديوان : 36 .
38- م.ن : 300.
39- م.ن : 291 .
40- م.ن : 210 .
41- ينظر : التوهج وانزياحاته في شعر علي عبد الله خليفة ، وجدان عبد الإله الصائغ ، مجلة علامـــات ، ج61 ، مج16 ، مايو – 2007م : 239 .
42- ينظر : الطبيعة في الشعر الأندلسي : 12 .
43- ينظر : م.ن : 9 وما بعدها .
44- ينظر : الظباء والعيس في معلقة امرئ القيس ، تحليل وتعليق : المحامي صديق الحافظ : 128 .
45- الديوان : 115 .
46- ملامح الرمز في الغزل العربي القديم : 165 .
47- الديوان : 371 .

48- م.ن : 336 .
49- م.ن : 138.
50- م.ن : 238 – 239 .
51- نهاية الأرب في فنون الأدب ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت 733هـ) ، تحقيق : د. مفيد قميحة : ج1 / 91 .
52- الديوان : 186.
53- م.ن : 226.
54- م.ن : 348 .
55- النقد الأدبي الحديث : 366 .
56- الديوان : 53 .
57- م.ن : 187 .
58- م.ن : 220 .

المصادر والمراجع :

1- أدب الكاتب ، عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت 276هـ) ، تحقيق : محمد الدالي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت – لبنان ، (د.ط) ، (د.ت) .
2- التوهج وانزياحاته في شعر علي عبد الله خليفة ، وجدان عبد الإله الصائغ ، مجلة علامات ، ج61 ، مج16 ، مايو – 2007م .
3- الحلة السيراء ، أبو عبد الله محمد بن الأبَّار القُضاعي البلنسي (ت 658هـ) ، حققه وعلَّق حواشيه : د. حسين مؤنس ، دار المعارف بمصر ، ط2 ، 1985م .
4- حياة الحيوان الكبرى ، كمال الدين الدميري (ت 808هـ) ، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت – لبنان ، ط1 ، 2003م .
5- الحيوان ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت255هـ) ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ط2 ، 1965 .
6- ديوان ابن الأبَّار ، أبو عبد الله محمد بن الأبَّار القُضاعي البلنسي (ت 658هـ) ، قراءة وتعليق : عبد السلام الهرَّاس ، 1999م .
7- الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، د. فوزي عيسى ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، ط1 ، 2007م.
8- الطبيعة في الشعر الأندلسي ، جودت الركابي ، دمشق – سوريا ، ط2 ، 1970م .

9- الظباء والعيس في معلقة امرئ القيس ، تحليل وتعليق : المحامي صديق الحافظ ، مطبعة الرشاد ، بغداد ، (د.ط) ، 1990م .
10- علم النفس والأدب ، د. سامي الدروبي ، دار المعارف ، ط2 ، 1981م .
11- عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، أبو العباس الغبريني أحمد بن أحمد بن عبد الله (ت 714هـ) ، حققه وعلَّق عليه : عادل نويهض ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط2 ، 1979م .
12- في الأدب الأندلسي ، د. محمد رضوان الداية ، دار الفكر ، دمشق – سوريا ، ط3 ، 2009م .
13- مرجعية الصورة في شعر الطبيعة في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة (نحو اعتماد المرجعية أساساً نقدياً) ، د. لمياء عبد الحميد القاضي ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط1 ، 2012م .
14- المستطرف في كل فن مستظرف ، شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي (ت 850هـ) ، إشراف المكتب العالمي للبحوث ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت – لبنان ، (د.ط) ، 1992م .
15- المقتضب من كتاب تحفة القادم لابن الأبَّار (ت 658هـ) ، تحقيق : إبراهيم الإبياري ، دار الكتاب المصري – القاهرة ، دار الكتاب اللبناني – بيروت ، ط3 ، 1989م .
16- ملامح الرمز في الغزل العربي القديم _ دراسة في بنية النص ودلالاته الفنية ، د. حسن جبار محمد شمسي ، دار السياب ، لندن ، دار اليقظة الفكرية ، سوريا ، ط1 ، 2008م .
17- النقد الأدبي الحديث ، د. محمد غنيمي هلال ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، (د.ط) ، 1997م .
18- نهاية الأرب في فنون الأدب ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت 733هـ) ، تحقيق : د. مفيد قميحة ، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط1 ، 2004م .
19- الوافي في تاريخ الأدب العربي في الأندلس – موضوعاته وفنونه ، د. عمر إبراهيم توفيق ، دار غيداء للنشر والتوزيع ، ط1 ، 2012م .

Nature and Its Impact on the experience Of the poet Ibn al-Abbar Algadaey Alblenci

Mohammed Kazem Ajil
The General Directorate for Education in Thi Qar

Summary :

This research deals with nature and Its influence on the poet Ibn al-Abbar in both (live and silent nature) and Its effect in his poetry and emotions . He found in its atmosphere a chance to bring out his feelings in order to less his stress which It was found together with suffering and crisis that happened to him in his life . This study has addressed it through the preface included in a translation the life of the poet himself and standing on the employment of poets ، Andalusians manifestation of nature with the practical side to this study in two sections are the Manifestations of nature living and manifestation of silent nature as to stop searching when ، the most prominent manifestation of nature and symbols that employed by the poet to express his emotion. Then epilogue came to show the main findings to this research . .